إسناد الكلام إلى قائله في القرآن الكريم

دراسة نموذجيّة تطبيقيّة

جمال عبدالرحيم صالح أبو رمّان *

ملخص

وُلدت فكرة هذا البحث أثناء قراءة القرآن الكريم، حيث كنت أسأل نفسي عند بعض الآيات الكريمة عن قائل الكلام الذي يذكره الله عز وجل، خاصة عندما يشترك أكثر من متكلم في ذلك الموضع من الآيات الكريمة، وذلك مما يلتبس فهمه على المستمع، فكنت أرجع إلى التفسير لمعرفة القائل، فأجد المفسرين مختلفين.

ولما لم أجد بحثاً علمياً قد بحث هذا الموضوع على نحوٍ متخصص، اجتهدت للكتابة فيه، محاولاً معرفة القائل؛ لِما في معرفته من أثر في فهم كلام الله تعالى، واستنتاج دلالات صحيحة من إيحاءات الآيات الكريمة، والله الهادي إلى سواء السبيل.

* كلية الشريعة، جامعة مؤتة.

تاريخ تقديم البحث: 2014/11/23م. تاريخ قبول البحث: 2015/9/9م.

© **جميع حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، المملكة الأردنية الهاشمية، 2016م.**

Assigning Speech Writer to in the Qur'an
A pilot study applied

Asma Ramadan" AL – Shiekh Khalil"

Abstract

The idea of this Seatotina reading the Koran, where I ask myself when some verses from the man who said the words that reminded him of Almighty God, especially when it involved more than one speaker in that place of verses, in which confused understanding of the listener, so I returned to the interpretation of knowledge view, I find two different interpreters .

And when I did not find scientific research may discuss this matter in a manner specialist, I worked hard to write it, trying to find out the view ; to know what the impact in understanding the word of God, and the conclusion is correct indications of overtones verses, God and the Pacific to the straight path .

المقدمة:

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلّم تسليماً كثيراً.

أمّا بعد..

فإنّ نعم الله تعالى على الناس لا تعدّ ولا تُحصى، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم/34]، وإنّ من أعظم نعمه –سبحانه– القرآن الكريم، أعظم كتاب بين أيدينا، أنزله –تعالى– رحمةً منه وفضلاً، أنزله لنعمل به، لا لنتعلمه فحسب؛ حتى ننال من بركاته، فنسعد به في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة/66]، وتلك الإقامة وما بُني عليها من ثمر، ليس خاصّاً بأهل الكتاب.

وبما أنّ الواجب علينا أن نتدبر القرآن الكريم عند قراءته أو سماعه، فلا شكّ أن نسأل عمّا أشكل علينا فهمه من آياته، ومن بعض تلك الأسئلة التي كنت أسأل نفسي عنها: من الذي قال هذا الكلام من آيات الله –تبارك وتعالى–؟ وعلى لسان مَن وردت هذه الآية أو تلك؟ وإذا كان هذا الكلام وارداً على لسان فلان فما معنى الآية على أساس هذا الفهم؟ وما الحكم الذي ينبني على ذلك؟ ولا شكّ أنّ الله –عزّ وجلّ– يريد منّا أن نُعمل عقولنا في فهم كتابه، والكشف عن مراده، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان/73]، ولمّا كانت تلك الأسئلة تدور حول هذا الموضوع جاءت أهميّة البحث فيه، وبذلك تُشكّل الإجابة على تلك الأسئلة إضافةً معرفيّة في أذهان القارئين أو المستمعين للقرآن الكريم.

لقد سجلت أكثر من ثلاثة عشر موضعاً من القرآن الكريم، اختلف المفسّرون في بيان قائله، وكلٌّ منهم له حجته، ولم أجد بحثاً علمياً أو رسالة جامعيّة جمعت تلك المواضع من كتاب الله تعالى بشكل مستقل، تُعين على فهم بعضٍ من آيات القرآن الكريم، فهذا الموضوع لم يُسبق بدراسة مستقلة، إنّما هو مبثوث في بطون كتب التفسير هنا وهناك، فإن وجد أحد من الباحثين أنّ هذا الموضوع قد كُتب فيه بشكلٍ مستقلٍ، فأرجو أن يبيِّن لي محل وجوده؛ لأتعلّم منه.

وبعد أن بدأت بالكتابة في هذا الموضوع، رأيت أن الأوراق قد زادت عن عشرين ورقة، ولم تتضمن سوى موضعين من تلك المواضع من القرآن الكريم، فلا يمكن أن يتسع هذا البحث لجميع تلك المواضع، عملاً بالشروط التي وضعها العلماء الأفاضل القائمون على شأن هذه المجلة العلميّة المحكّمة، فهُما نموذجان تطبيقيان يمكن أن يؤسّسا – في نظر الكاتب – منطلقاً لبحث المواضع الأخرى في القرآن الكريم، اخترت أحدهما مدنياً والآخر مكيّاً، وجعلت المدني قبل المكي بحسب ترتيب السور في المصحف الشّريف.

الفرق بين المبهمات في القرآن الكريم وبين موضوع البحث:

إن المبهمات في القرآن الكريم تتعلق بمعان تفصيلية، والمنهج العلمي المتبع في التعامل مع تلك المبهمات له أسس، تقوم أولاً على البحث في القرآن الكريم نفسه، فإن بينها القرآن الكريم أخذنا ببيانه، فإن لم نجد فيه بحثنا في الأساس الثاني، وهو الأحاديث الصحيحة عن رسول الله . صلى الله عليه وسلم .، فإن لم نجد فيها، فإننا غير مضطرين للبحث في الإسرائيليات؛ لأن البحث في المبهمات عند ذلك ليس فيه كبير فائدة تعود على المتدبر للقرآن الكريم، والأمثلة على تلك المبهمات كثيرة جداً، ذكرها العلماء الذين كتبوا في علوم القرآن الكريم، من تلك المبهمات اسم القرية المرادة في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة:259]، فإنه ليس في تعيينها كثير فائدة، ومن تلك المبهمات معرفة أسماء السائلين في قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة:189]، وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة:215]، إلى آخر الآيات الكريمة المشابهة لهتين الآيتين، ومنها معرفة أسماء فتية أهل الكهف، ومحل كهفهم، ومن هو قائل:(كم لبثتم) في قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ [الكهف:19]، إلى آخر تلك المبهمات الكثيرة، التي ليس في معرفتها كبير فائدة، أما موضوع البحث فإنه يبحث في معرفة المتكلم، عندما يلتبس على الذهن معرفته، كمعرفة القائل لقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: 52]، هل قالته امرأة العزيز؟، أم قاله سيدنا يوسف . على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ولا شك أنّ معرفة ذلك فيه فائدة، وهو ما رغبت أن أكتب فيه في هذا البحث.

مشكلة الدراسة وأهميتها والهدف منها:

إنّ السؤال عما أشكل علينا فهمه من آيات الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وقد ذمّ الله تعالى الذين لا يتدبرون القرآن الكريم، فقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ومن هنا فإني كنت أسأل نفسي عن صاحب الكلام أو قائل القول في بعض آيات القرآن الكريم، فكان لا بد من دراسة متخصصة تجيب على هذا السؤال، وهو ما يظهر أهمية هذه الدراسة والهدف منها.

المنهج المتبع في هذه الدراسة:

إنّ المنهج الذي اتبعته في هذه الدراسة للنموذجين اللذَين عرضت لهما هو المنهج الاستقرائي، إذ كنت أستقرئ جميع كتب التفسير التي استطعت الوصول إليها، فتتبعت أقوال أهل التفسير، وبينت آراءهم المختلفة، والأدلة التي استندوا إليها فيما ذهبوا إليه، مناقشاً أقوالهم وأدلتهم، وذاكراً القول الذي استرحت إليه وما يسنده من أدلة.

الدراسات السابقة:

لقد بذلت جهدي في العثور على دراسة سابقة في هذا الموضوع، فلم أجد بحثاً علمياً أو رسالة جامعية مكتوبة في هذا الموضوع، فهو لم يُسبق بدراسة مستقلة، إنما هو مبثوث في بطون كتب التفسير هنا وهناك.

سبب اختيار النموذجين اللذَين عالجهما البحث:

إنّ النموذجين اللذَين عالجهما البحث نموذجان متنوعان، أحدهما مكي والآخر مدني، ولما كان التنوع أفضل من الاقتصار على نوع واحد، أحببت أن أنوع بين النماذج التي عالجتها في بحثي، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنّ أقوال المفسرين قد تعددت واشتدّ تباينها في إسناد الكلام إلى صاحبه في هذين النموذجين بشكل واضح.

وقد جاءت خطة البحث على النحو الآتي:

المقدمة: وذكرت فيها أهمّيّة الموضوع في مجاله، وأسئلة الدراسة، وما يتعلّق بالدراسات السابقة، والإضافة المعرفيّة التي جاء البحث لتحقيقها –بإذن الله تعالى–.

المبحث الأول: السياق ودوره في تفسير القرآن الكريم.

المبحث الثاني: النموذج المدني.

المبحث الثالث: النموذج المكي.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج.

وقبل أن أُنهي هذه الخاتمة، فإنّ من الأهمية بمكان أن أُبيّن منهجي عند عرض النّموذجين اللّذَين اخترتهما، وهو أنّي لم أقصد تفسير الآيات التي عرضتها في النّموذجين تفسيراً تحليلياً، فلم أُفسرها كُلَّها إلا من جهة ما يخدم الموضوع في التّعرّف إلى صاحب الكلام، فتفسيرها كلّها يُخرج البحث عن عنوانه.

هذا جهدي وهو جهد المقلّ، فكتاب الله تعالى لا يستكثر عليه جهد، فإن وُفقت فمن الله تعالى وحده، وإن أسأت فمن نفسي، وأسأله –سبحانه وتعالى– العلم والحكمة والقبول.

المبحث الأول: السيّاق ودوره في تفسير القرآن الكريم:

ممّا لاشكّ فيه أنّ السيّاق له دورٌ بارزٌ في فهم معنى الآية الكريمة، ولذلك اهتمّ به علماء التفسير اهتماماً كبيراً. وكان اهتمامهم به مبكراً، فهاهو شيخ المُفسّرين الإمام الطبري –رحمه الله– يعتني بشأن السياق في مواضع من تفسيره، ويستفيد منه في الترجيح بين أقوال المفسرين، والأمثلة على ذلك كثيرة، اكتفي بمثالٍ واحد، فعندما فسّر قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ [البقرة/118] ذكر أقوال المفسّرين في بيان أولئك الذين لا يعلمون، فذكر أنّ بعضهم يقول: هم النّصارى، وبعضهم يقول: هم اليهود، وبعضهم يقول: هم مشركو العرب. ثُمَّ رجّح أنهم النّصارى؛ لأنّ تلك الآية جاءت في سياق خبر الله عنهم، وعن افترائهم على الله، وادّعائهم عليه –سبحانه– أنّ له ولد(1)2. فمراعاة السياق هو أحدٌ المقاييس التي اعتمد عليها الطبري في تفسيره(3).

وهاهو الزمخشري –رحمه الله– يعتمد على فهم السياق في معرفة حكمة الله –تعالى– في تقديم ذكر الإناث على الذكور في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى/49]، فبيَّن أنّ سياق الآية يتعلق بمشيئة الله تعالى، وأنّ الله –تعالى– فاعلٌ ما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم، والأهم واجب التقديم(4).

ومن فوائد معرفة السياق معرفة ما تعود إليه الضمائر، من أمثلة ذلك أنّ الضمير في كلمة (عليها) في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل/61] يعود إلى الأرض بدلالة السياق(5)، ويُلاحظ هنا أنّ ضمير الغائب قد عاد على غير ملفوظٍ به، فسّره سياق الكلام(6).

وقد ذكر ابن القيم –رحمه الله– فوائد كثيرة في معرفة السياق، فقال: (السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان/34]، كيف نجد سياقه يدلّ على أنّه الذليل الحقير)(7).

ومن فوائد تدبر السيّاق، معرفة الحكمة من اختلاف الفاصلة القرآنية بين الآيات المتشابهة الألفاظ، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم/34]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل/18].

فقد يسأل سائلٌ عن الحكمة في تخصيص آية النّحل بوصف المنعِم وآية إبراهيم بوصف المنعَم عليه؟ قال الزركشي: (إنّ سياق الآية في سورة إبراهيم –على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام– في وصف الإنسان وما جُبل عليه، فناسب ذكْر ذلك عقيب أوصافه، وأمّا آية النّحل فسيقت في وصف الله تعالى، وإثبات ألوهيّته، وتحقيق صفاته، فناسب ذكْر وصفه –سبحانه–، فتأمّل هذه التراكيب، ما أرقاها في درجة البلاغة)(8).

ومن الجدير بالتّنبيه في هذا المقام أنَّ القرآن الكريم لا يعنى بالفاصلة على حساب المعنى، بل يذكر الفاصلة مراعياً فيها المعنى والسيّاق والجرْس وخواتم الآي وجوّ السورة، بل عموم التعبير القرآني كلّه، وجمع بين كلّ ذلك ونسقه بطريقة فنيّة في غاية الرّوعة والجمال[9].

لا تنتهي فوائد النظر في السياق عند الحد الذي وصفته، بل تتجاوزه إلى فوائد أخرى، كالتي تتصل باعتباره أساساً من الأسس التي يعتمد عليها العلماء في نفْي الترادف بين ألفاظ القرآن الكريم، وإظهار دقائق الفروق اللغويّة بينها[10]، ولم أُرد أن أستقصي جميع فوائد السياق في هذا المبحث، إلاّ أنّي أردت أن أجعل هذا المبحث توطئةً لما بين يديه من الموضوع، فالسياق له دورٌ بارزٌ في فهم المعنى، ومن يقصّر في تدبّر السيّاق لا يمكن له أن يفهم معاني القرآن الكريم، أو أن يدرك مناسبة انتقاله من موضوعٍ إلى موضوع، أو يتعرّف إلى القائل لهذه الآية أو تلك، ويميِّزه عن غيره.

إنّ محاولة معرفة صاحب الكلام لها أكثر من فائدة في نظري؛ منها:

أولاً: يزداد المسلم تدبراً للقرآن الكريم، وفهماً لمعانيه.

ثانياً: يوضّح صفات القائل حتى لا تختلط بقائلٍ آخر.

ثالثاً: استنتاج المفاهيم الصحيحة من دلالات الآيات وإيحاءاتها.

كان هذا المبحث حول السيّاق بمثابة التقديم للموضوع والدخول فيه، وفي المبحثين الآتيين نموذجان من النماذج التطبيقيّة لهذا البحث، تظهر فيهما قيمة تدبر السيّاق –بإذن الله تعالى–.

المبحث الثاني: النّموذج المدني:

قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [آل عمران/72–74].

هذه الآيات الكريمة من سورة آل عمران، وهي سورة مدنيّة[11].

وقد جاءت هذه الآيات الكريمة في سياق آيات خاطبت أهل الكتاب، مبيِّنةً لهم ما هم عليه من الضلال في أمر سيدنا عيسى –على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام– ومن اعتبار اليهود والنصارى –

كل على حدة– أنّ إبراهيم –على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام– كان يهوديّاً أو نصرانيّاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران/59]، وقال –سبحانه–: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران/67]، ثمّ خاطبت الآيات المؤمنين، وبيّنت أنّ هناك طائفة من أهل الكتاب –وهم اليهود– حريصة على إضلال المؤمنين وصدّهم عن دينهم، قال تعالى: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران/69]. ثمّ أخبرنا الله –تعالى– عن قول طائفةٍ من أهل الكتاب، فقال: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران/72]. ومن الواضح أنّ هذا الكلام هو من قول تلك الطائفة.

ثمّ بدأت الآية التي بعدها بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران/73]، وقد ذهب جمهور المفسّرين إلى إسناد هذا الكلام إلى الطائفة من أهل الكتاب المذكورين في الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران/72]، وهم اليهود –عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة–. ومعنى الآية: ولا تصدقوا إلا من تبع دينكم فكان يهودياً(12).

وذهب بعض المفسّرين إلى ذكر احتمالٍ آخر، إضافةً إلى الاحتمال الأوّل، وهو أن يكون القائل هو الله تعالى نفسه، قالها مخاطباً بها المؤمنين، لتثبيت قلوبهم، وشحذ بصائرهم؛ لئلاّ يدخل الشك في نفوسهم مِن تلبيس اليهود، وتزويرهم في دينهم، ومعناها: ولا تصدقوا يا معشر المؤمنين إلا لمن تبع دينكم.

وقد تتبعت كتب المفسّرين، فوجدتُ أنّ أوّل من ذكر هذا الاحتمال في كتابه هو أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي، ثم تابعه في ذكر ذلك الاحتمال مفسّرون آخرون، منهم الإمام القرطبي، والإمام أبو حيّان الأندلسي(13).

أدلّة الجمهور:

استدلّ الجمهور لمذهبهم بأكثر من دليل:

1. إنّ الله –عزّ وجلّ– ذكر قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران/72]، ثمّ قال بعدها: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران/73]، أي: لا تأتوا بذلك الإيمان إلا لأجل من تبع دينكم، فكأنّهم قالوا: ليس الغرض من الإتيان بذلك التلبيس إلا بقاء أتباعكم على دينكم، وبذلك المعنى تكون الآية: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ موافقةً لسياق ما قبلها(14).
2. ما نُقل عن قتادة –رحمه الله تعالى– حيث قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران/73]: (هذا قول بعضهم لبعض)(15).
3. إنّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران/73]، متعلّقٌ بقوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران/73]، وما بنيهما اعتراض، أي: ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتَى أحدٌ مثل ما أُوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم، كأنهم يقولون: أسرّوا تصديقكم بأنّ المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أُوتيتم، ولا تفشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم دون المسلمين؛ لئلاّ يزيدهم ثباتاً، ودون المشركين؛ لئلاّ يدعوهم إلى الإسلام(16).

دليل الثّعلبي ومن معه:

استدلّ الثّعلبي ومن معه على الاحتمال الذي أوردوه بقول الضحّاك: إنّ اليهود قالوا: إنّا نُحاجّ (أي نُحاجِجُ) عند ربّنا مَن خالفنا في ديننا، فبيّن الله تعالى أنّهم هم المُدحضون أي المغلوبون، وأنّ المؤمنين هم الغالبون(17).

وقد انفرد الإمام القرطبي –بحسب ما ظهر لي– دون سائر المفسّرين بذكر حديث أضافه إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلّم–، أنّه قال: (إنّ اليهود والنّصارى يُحاجُّونا عند ربّنا، فيقولون: أعطيتنا أجراً واحداً وأعطيتهم أجرين، فيقول: هل ظلمتكم من حقوقكم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فإنّ ذلك فضلي أوتيه من أشاء)(18).

والذي أُلاحظه –وقد أكون مُخطئاً– أنّ استدلال الثّعلبي ومن معه بقول الضحّاك على أنّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران/73] هو من كلام الله تعالى يخاطب به

المؤمنين، هو استدلالٌ في غير محله؛ لأنّ الثّعلبي قال بعد نقله قول الضحّاك: فبيّن الله تعالى أنّهم هم المدحَضون، وأنّ المؤمنين هم الغالبون، يعني بذلك أنّ الله تعالى بيّن هذا المعنى بقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾. ولا أرى اتّصالاً بين معنى الآية وبين ما قاله الثّعلبي.

والذي أميل إليه ما قاله جمهور المفسّرين، وهو أنّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ من كلام اليهود؛ لقوة الأدلّة التي ذكروها، ومن الممكن أن يُضاف إليها دليلٌ آخر، مستفادٌ من التناسب بين الآيات، وهو أنّ هؤلاء اليهود قد اجتمعوا فيما بينهم؛ ليمكروا بالمؤمنين، ومن المناسب أن يوصي بعضهم بعضاً بعد ذلك الاجتماع، أن لا يعلم به من ليس يهوديّاً، وأن لا يؤمنوا أي يصدقوا أو يطمئنّوا إلا لمن هو على دينهم، فالفعل (تؤمنوا) مأخوذٌ من (الأمْن)، وأصل الأمن طمأنينة النفس(19)، وهناك دليلٌ آخر وهو قوله تعالى بعدها: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ [آل عمران/73]، فلفظة (قُل) تُلْمِح أنّ الله -عزَّ وجلّ- قد ذكر قبلها كلاماً، وُجّه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قد يكون ذلك الكلام سؤالاً، أو شبهة قالها الكافرون، فيُلقّن الله تعالى نبيّه -صلى الله عليه وسلّم- الردّ عليها، فأدلة الجمهور أقوى، وأمّا استدلال الثعلبي ومنه معه بقول الضحّاك فليس له اتّصال بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، ولو سلّم البعض باحتمال أن تكون تلك الجملة من الآية من كلام الله تعالى، فلا يمكن له أن يذكر وجهاً جيداً لاتصال قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ بتلك الجملة التي سبقتها مباشرة، واستدلال الإمام القرطبي لذلك الاحتمال بالحديث الذي أضافه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ليس صحيحاً؛ لأنّ الحديث ليس له أصلٌ في كتب السُّنَّة.

وأمّا فيما يتعلّق بمعنى الآية على ما ذهب إليه الجمهور، فيكون -باختصار- على النحو الآتي:

بعد أن اجتمعت طائفةٌ من أهل الكتاب من اليهود لتمكر بالمؤمنين، ليرجعوا عن دينهم، نهت تلك الطائفة من اليهود أتباعها عن التّصديق والاطمئنان إلا لمن تبع دينهم، فكان يهوديّاً مثلهم، موهمين لهم أنّهم هم المهتدون، فأمر الله تعالى نبيّه -صلّى الله عليه وسلّم- أن يردّ عليهم بقوله: إنّ الهُدى هُدى الله، فالتوفيق إلى الهُدى والإيمان من الله. ومن يُثبّته الله على الهدى فلا مُضل له، وهذا فيه تكذيب لليهود بادّعائهم أنّهم على هُدى، وفيه تيئيسٌ لهم من مكرهم(20).

وقد اختلف المفسّرون في نفس هذا الموضع من القرآن الكريم في إسناد قوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران/73] اختلفوا في إسناده إلى قائله على فريقين:

الفريق الأوّل:

قال أصحاب هذا الفريق من العلماء: إنّ هذا الكلام هو من كلام الله تعالى، ومن علماء التفسير الذين قالوا بهذا العلامة الزمخشري والإمامان الرازي وأبو حيّان الأندلسي والآلوسي، واختاره من المعاصرين من العلماء الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور والشيخ محمد رشيد رضا، وقد استدلّوا لما ذهبوا إليه بالأدلّة الآتية:

الدليل الأوّل:

قراءة ابن كثير ﴿أَأَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ﴾ [آل عمران/73]، بزيادة همزة الاستفهام للتوبيخ، فكأنّ الله – تعالى– يقول لليهود: أمن أجل أن يؤتَى أحد شرائع مثل ما أُوتيتم من الشرائع تُنكرون اتباعه؟! وقد حذف الجواب للاختصار.

الدليل الثاني:

لمّا قال اليهود لأتباعهم: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، أمر الله تعالى نبيّه –صلّى الله عليه وسلّم– أن يقول لهم: إنّ الهدى هدى الله، فلا تنكروا أن يؤتى أحدٌ سواكم من الهدى مثل ما أُوتيتموه، أو فإنّ المسلمين سيُقيمون عليكم الحجّة يوم القيامة، فتكون الآية بإضمار: فلا تنكروا.

الدليل الثالث:

إنّ (الهُدى) معناه: البيان، وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ بدلٌ منه، وقوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ خبر المبتدأ بإضمار حرف لا، والتقدير: قل يا محمد –صلّى الله عليه وسلّم– للمؤمنين الذين معك: لا شكّ أنّ بيان الله هو أن لا يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم، وهو دين الإسلام الذي هو أفضل الأديان، وأن لا يحاجّوكم اليهود عند ربكم في الآخرة؛ لأنّه يظهر لهم في الآخرة أنّكم محقّون، وأنهم مضلّون، وهذا التّأويل ليس فيه إلا أنّه لا بدّ من إضمار حرف (لا)، وهو جائزٌ كما في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء/176] أي: أن لا تضلوا[21].

وبهذا المعنى الذي ذكروه في هذا الدليل يكون قوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ من كلام الله –تعالى– أمر الله تعالى نبيّه –صلّى الله عليه وسلّم– أن يقوله للمؤمنين الذين معه، بينما نجد في الدليلين الأول والثاني أنّ المخاطب بهذا الكلام هم اليهود، وفي جميع الوجوه فإنّ قوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ من كلام الله تعالى وليس من كلام اليهود، مع اختلاف المخاطَبين، هذا على قول أهل هذا الفريق من العلماء.

الفريق الثاني:

قال أصحاب هذا الفريق من العلماء: إنّ قوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران/73] هو من كلام الطائفة من أهل الكتاب، وهم اليهود المذكورون في الآية التي قبلها.

ومن العلماء الذين ذهبوا إلى هذا القول: الإمام الطبري، وابن كثير. قال الإمام الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يكون قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ جملة معترضة، ويكون الكلام كله خبراً عن قول الطائفة التي قال الله –عزّ وجلّ–: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران/72]، وإنّما اخترنا ذلك من سائر الأقوال؛ لأنّه أصحّ معنى، وأحسنها استقامة على معنى كلام العرب، وأشدّها اتّساقاً على نظم الكلام وسياقه، وما عدا ذلك من القول فانتزاع يبعد من الصحة، على استكراه شديدٍ للكلام[22]، وعند تفسير الإمام ابن كثير لقوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران/73] قال: (يقولون –أي اليهود–: لا تُظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين، فيتعلّموه منكم، ويساوونكم فيه، ويمتازون به عليكم لشدّة الإيمان به، (أو يحاجّوكم به عند ربّكم)، أي يتّخذوه حجّة عليكم بما في أيديكم، فتقوم به عليكم الدلالة، وترتكب الحجّة في الدنيا والآخرة)[23].

من الواضح أنّ الإمام الطبري قد استدلّ لما ذهب إليه بدليل السياق، وقد وجدت أنّ العلاّمة الزمخشري يبسط القول في هذا الدليل، على الرغم من كونه –كما يظهر لي– من أنصار الفريق الأول القائلين بأنّ قوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران/73] ، من كلام الله تعالى، إلا أنّه قد بسط القول في هذا الدليل، فبيّن أنّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران/73] في أوّل الآية متعلّق بقوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ﴾ [آل عمران/73]، وما بينهما اعتراض. أي: ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحدٌ مثل ما أُوتيتم إلا لأهل

دينكم دون غيرهم. أرادوا بذلك أن يقولوا: أسروا تصديقكم بأنّ المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم، ولا تفشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم دون المسلمين؛ لئلا يزيدهم ثباتاً، ودون المشركين؛ لئلا يدعوهم إلى الإسلام، وقوله تعالى: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران/73] عطفٌ على قوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰ﴾ [آل عمران/73]، والواو في (يحاجوكم) فاعلٌ يعود على (أحد) في قوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ﴾؛ لأنّ (أحد) في معنى الجمع، بمعنى: ولا تؤمنوا لغير أتباعكم أنّ المسلمين يقيمون عليكم الحجة يوم القيامة بالحق[24].

والذي أميل إليه هو قول الفريق الثاني من العلماء، وهو أنّ قوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران/73]، من كلام الطائفة من أهل الكتاب، المذكورة في الآية التي قبلها مباشرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران/72] أميل إلى هذا القول؛ لأنّه أليق بالسياق، كما بينته عند ذكر أصحاب الفريق الثاني؛ ولأنّ هناك آية أخرى من كتاب الله عز وجلّ قريبة في معناها من معنى هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة/76]، وبما أنّ القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، فمن الواضح أنّ قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة/76]، يعيننا على إسناد قوله تعالى: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران/73] إلى قائله وهم اليهود، وهم الذين قالوا: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ [آل عمران/73]؛ لشدّة ارتباطه بقوله تعالى: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران/73].

هذا وإنّ استدلال الفريق الأول بقراءة ابن كثير، استدلال فيه نظر، لا من حيث ثبوتها فهي متواترة[25]، بل من حيث توجيهها، فقراءة ابن كثير (ءَان يؤتى) بتسهيل الهمزة الثانية وقد ذكرها أبو بكر أحمد بن مجاهد، فقال: (قوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ [آل عمران/73] كلّهم قرأ: (أنْ يؤتى) غير ممدود إلا ابن كثير فإنّه قرأ: (ءَان يؤتى) ممدوداً)[26].

وتوجيه قراءة ابن كثير على أنّها استفهام إنكاري ممكن، إلاّ أنّ الذي أحاول أن أخلص إليه أنّ هذا الاستفهام مِن مَن إلى مَن؟ خاصّةً وأنّه لا يمكن فصله عن ما بعده –أعني قوله تعالى: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران/73]. والذي أطمئنّ إليه أن يُحمل قوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ

مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران/73] أنّه من جُملة كلام اليهود لبعضهم البعض، سواء أقُرأت الآية بقراءة عامّة القرّاء التي تفيد الخبر، أم قُرأت بقراءة ابن كثير التي تفيد الاستفهام، فإنّه استفهام على سبيل الإنكار والتوبيخ.

فإذا قرأنا الآية بقراءة عامّة القرّاء التي تفيد الخبر (أن يؤتى) بدون مد (أن) يكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا﴾ متعلّقاً بقوله (أن يؤتى)، أي أنّهم يقولون لبعضهم: ولا تؤمنوا أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم ولا تؤمنوا أنّهم يحاجّوكم عند ربّكم.

وإذا قرأناها بقراءة ابن كثير يكون المعنى أنّ هؤلاء اليهود يوبّخون بعضهم الذين ذكرهم الله تعالى في آية البقرة، وهم الذين كانوا يحدّثون المؤمنين بما في التوراة من وصف النبي –صلّى الله عليه وسلّم–، فهم يوبّخونهم لذلك وينكرون عليهم تصريحهم، وكأنّهم يقولون لهم في آية آل عمران: أتظنون أن يؤتى أحدٌ مثل ما أُوتيتم، أو أتظنون أن يغلبكم أحدٌ عن ربكم(27)، ولا شكّ أنّ هذا يكون من رؤسائهم لعامّتهم، فإذا قرأنا بقراءة عامّة القرّاء تكون (أو) في قوله تعالى: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ﴾ قد عطفت خبراً على خبر، وإذا قرأنا بقراءة ابن كثير تكون (أو) قد عطفت استفهاماً على استفهام.

وممّا جعلني أيضاً أستريح إلى كون قوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾، من كلام اليهود لبعضهم، أنّ الله –عزّ وجلّ– قال لرسوله –صلّى الله عليه وسلّم– بعدها: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران/73]. فكلمة (قل) تشعر – كما ذكرت عند كلمة (قل) التي سبقتها– أنّ الكلام الذي قبلها إنّما هو سؤال وُجّه إلى النبي –صلّى الله عليه وسلّم– أو شُبهة من كلام باطل أثاره الكافرون، فعلّم الله –تعالى– نبيّه –صلّى الله عليه وسلّم– ما يجيبهم به. وقد ذكر الإمام الرازي أنّ قراءة عامّة القرّاء (أن) بالقصر من غير مدٍّ في قوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰ﴾ تحتمل معنى الاستفهام(28). والله تعالى أعلم بمراده.

المبحث الثالث:

النموذج المكّي:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ

حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ [يوسف/50–53].

هذه الآيات الكريمة من سورة يوسف –على نبينا وعليه الصلاة والسلام– وهي سورة مكية إلاّ ثلاث آيات من أوّلها على قولٍ لابن عبّاس –رضي الله عنهما–[29].

وتلك الآيات الكريمة تخبرنا عن مرحلة من مراحل حياة سيدنا يوسف –على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام–، تلك المرحلة التي قضاها في السِّجن مظلوماً، وبعد أن رأى الملك في نومه رؤياه التي قصَّ الله تعالى علينا، ولم يعرف حاشيتُه تعبيرها، فأوّلها سيدنا يوسف –على نبينا وعليه الصلاة والسلام– بعد ذلك، جاء إلى سيدنا يوسف –على نبينا وعليه الصلاة والسلام– رسولٌ من قبل الملك، وطلب إليه الخروج من السِّجن، فلم يرض سيدنا يوسف –على نبيّنا وعليه الصّلاة والسلام– الخروج، قبل أن تظهر براءته مما رمته به النّسوة، وبعد سؤال الملك لهنّ في ذلك، أقررن ببراءته، واعترفت امرأة العزيز بذنبها، وشهدت لسيدنا يوسف –على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام– بالصدق والعفاف.

وقد اختلف المفسّرون في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف/52–53].

اختلفوا في قائل هذا الكلام الكريم، فبعضهم يرى أنّه من كلام سيدنا يوسف –على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام–، وبعضهم يرى أنّه من كلام امرأة العزيز، وذكر الإمام القرطبي –رحمه الله– قولاً ثالثاً لم يذكر قائله، وهو أنّ ذلك الكلام من قول العزيز، فكأنّه يقول: ذلك ليعلم يوسف –على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام– أنّي لم أخنه بالغيب وأنّي لم أغفل عن مجازاته على أمانته[30].

ذكر الإمام القرطبي –رحمه الله– ذلك القول، ولم يعلّق عليه. وهو قولٌ غريب يكاد الإمام القرطبي –رحمه الله– قد انفرد بذكره من بين المفسّرين، وأراه –والله تعالى أعلم– قولاً غريباً جداً ينفر من السياق أشدّ النفور؛ لأنّ ما سبقه من الكلام ليس فيه إشارة إلى حضور العزيز مِن قريب أو بعيد.

أصحاب القول الأول وأدلّتهم:

الذين أسندوا قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف/52–53] إلى سيدنا يوسف –على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام– جماعةٌ من أجلّة المفسّرين، منهم الإمام الطبري والعلامتان الزمخشري والآلوسي.

وعلى ضوء ذلك الفهم للإمام الطبري ومن معه يكون تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾، أنَّ سيدنا يوسف –على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام– كأنّه يقول: ذلك الفعل الذي فعلتُه، من ردي رسول الملك إليه، وتركي إجابته والخروج إليه، ومسألتي إياه أن يسأل النسوة اللاتي قطّعن أيديهن عن سبب ذلك، إنّما فعلته ليعلم العزيز أني لم أخنه في امرأته، ومجاهد وقتادة هما من المفسّرين الذين ذكر الإمام الطبري أنهم يقولون أن الضمير في (ليعلم) يعود على العزيز، أي: ذلك ليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجته بالغيب، وذكر الإمام الطبري قولاً آخر عن الضحّاك، وهو أن الضمير يعود على الملك، والمعنى: ليعلم الملك أنّي لم أخنه في زوجة وزيره العزيز بالغيب.

ويكون معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ على قول مجاهد وقتادة ومن معهما ممن ذكرهم الإمام الطبري: وليعلم العزيز أنّ الله لا يسدِّد صنيع من خان الأمانات ولا يرشد فعالهم في خيانتهم لها، ويكون المعنى على قول الضحاك: وليعلم الملك ذلك(31).

ويرى العلامة الزمخشري أنّ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ تعريضٌ بامرأة العزيز وزوجها، تعريض بها في خيانتها أمانة زوجها، وتعريض به في خيانته أمانة الله حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه، ويجوز أن يكون تأكيداً لأمانته، وأنّه لو كان خائناً لما هدى الله كيده ولا سدده(32).

وقد نقل الآلوسي في تفسيره القول الذي يفيد احتمال عَوْد الضمير في (ليعلم) و(لم أخنه) على الملك؛ وذكر السبب وهو أنّ خيانة الوزير خيانة للملك. وذكر قولاً آخر يفيد احتمال عود الضمير على الله تعالى، فيكون المعنى: ذلك ليعلم الله تعالى أنّي لم أعصه؛ أي لِيَظهر أني غير عاص، فيصير هذا سبب رفعة منزلتي، وليظهر أنّ كيد الخائن لا ينفذ وأنّ العاقبة للمطيع لا للعاصي(33)، والإمام الألوسي قد استبعد هذا القول، وأراه بعيداً كذلك؛ لبعده عن السياق؛ ولأنّه من غير المعقول أن يقول نبي من أنبياء الله تعالى فعلت كذا وكذا ليعلم الله تعالى كذا.

وعند تفسير الإمام الطبري قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف/53]، ذكر أنّ يوسف –على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام– يقول: وما أبرئ نفسي من الخطأ والزلل فأزكيها، إنّ نفوس العباد تأمرهم بغير ما يرضي الله تعالى، إلا أن يرحم ربي من شاء من خلقه فينجيه من اتباع هواها إذا أمرته بالسوء، ثم ذكر الإمام الطبري رواياتٍ بعضها عن ابن عبّاس –رضي الله عنهما– وبعضها عن الحسن وبعضها عن سعيد بن جبير تخبرنا أن يوسف –على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام– لما قال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ غمزه جبريل –عليه السلام– أو ملك آخر، أو امرأة العزيز، فقال له أحدهم: ولا حين هممت بها وحللت سراويلك؟ فقال حينها يوسف –على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام–: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف/53][34].

هذه الرّوايات تتنافى مع عصمة الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– وهي من الإسرائيليّات التي يجب التنبيه عليها والحذر منها، وقد بحثت في كتب السنة فلم أجد لها أصلاً، ولم أجد أحداً من أهل السنة ذكرها، بل إنّ من ذكرها منهم ردّها، قال أبو محمد الحارث بن محمد: (حدّثنا يحيى بن أبي بكير، حدّثنا إسرائيل، عن خُصَيفٍ، عن عكرمة، عن ابن عبّاس –رضي الله عنهما–، قال: (عُيِّر يوسف بثلاث: وذكرها، وذكر منها قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾، فقال له جبريل –عليه السلام–: ولا حين هممت؟ فقال: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. ذكر ذلك الشيخ أبو الحسن الهيثمي، ثمّ قال: هذا إسنادٌ لا يصحُّ، فإنّ فيه خصيفاً، وهو ضعيفٌ جداً، وهو موقوف أيضاً، ولا يُلتفت إلى ما رواه خُصيف، ولا سيّما فيما رواه في حقِّ الأنبياء –عليهم الصّلاة والسلام– وهم معصومون قبل البعثة وبعدها، هذا هو الحق[35].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: (وأمّا ما ينقل من أنّه حلّ سراويله وجلس مجلس الرجل من المرأة، وأنّه رأى صورة يعقوب –على نبيّنا وعليهما الصّلاة والسّلام– عاضّاً على يده، وأمثال ذلك، فكلّه مما لم يُخبِر الله به ولا رسوله، وما لم يكن كذلك فهو مأخوذٌ عن اليهود، الذين هم من أعظم الناس كذباً على الأنبياء وقدحاً فيهم، وكلُّ من نقله من المسلمين فعنهم نقله، لم ينقل من ذلك أحدٌ عن نبينا –صلى الله عليه وسلم– حرفاً واحداً)[36].

إنّ العلاّمة الألوسي وهو من أصحاب هذا الفريق الذي يقول بأنّ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا

رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف/52-53] من كلام سيّدنا يوسف -على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام- استدلّ بالرّوايات التي نقلها الإمام الطّبري -رحمه الله- ثمّ قال: (وهو إن صحّ -أي الخبر المحكي حول سيّدنا يوسف -على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام وقد ذكرته آنفاً- يُحمل الهم فيه على الميل الصادر عن طريق الشّهوة البشريّة لا عن طريق العزم والقصد)[37]. لقد كان الأنسب من وجهة نظري للإمام الآلوسي، وهو بلا شك جبلٌ من جبال العلم لا يدانى بالنسبة لواحدٍ مثلي، إلا أنّ الواجب العلمي يملي عليَّ أن أتكلّم في حدود ما علمت، والواجب الأدبي يُملي عليّ أن أعرف قدر نفسي أمام العلماء، فلا أتكلّم فيما أعلم إلا في حدود الأدب مع هؤلاء العلماء الأجلاّء، جعلهم الله تعالى في الفردوس الأعلى من جنته، فأرى أنَّ الأنسب أن لا يذكر العالم المفسّر في تفسيره حديثاً يحمل في طيّاته غمزاً بمقام النبوة ولو من طرف خفي، فقوله عن الحديث (إن صح) ثم بناؤه عليه ما بناه لا أطمئن إليه -والله تعالى أعلم-.

ولمّا فسّر العلامة الألوسي -رحمه الله- قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. بيّن أنّ هذا من كلام سيدنا يوسف -على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام- ومعناه أنّه يقول: وما أُنزِّه نفسي عن السوء، وأنّ سيدنا يوسف -على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام- قاله هضماً لنفسه البريئة عن كل سوء، وتواضعاً لله تعالى، وتحاشياً عن التزكية والإعجاب بحالها، على أسلوب قول نبيّنا -صلّى الله عليه وسلّم-: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر)[38]، أو أنّ معناه: أنّي لا أنزّهها من غير توفيق الله تعالى لها[39]، وسوف أذكر رأيي -بإذن الله- في هذا الربط بين حديث رسولنا -صلّى الله عليه وسلّم- وبين الآية الكريمة بعد عرض أقوال الفريق الثاني من العلماء.

أصحاب القول الثاني وأدلتهم:

وأمّا الذين أسندوا قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف/52-53] إلى امرأة العزيز، فمنهم أيضاً جماعة من أجلّة المفسّرين، منهم الإمام القرطبي وابن تيمية وابن كثير[40]، وأخذ بقولهم من المعاصرين كل من الشيخ أحمد مصطفى المراغي، ومحمد رشيد رضا، وسيد قطب، وابن عاشور -رحمهم الله جميعاً-[41].

ويرى الإمام القرطبي أنّ القول بأنّ صاحب الكلام هي امرأة العزيز أولى إذا كان الاحتمال يتّسع لذلك؛ حتّى يُبرَّأ سيدنا يوسف –على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام– من حل الإزار والسراويل[42]، وقد نقلتُ –بفضلٍ من الله– تحقيق العلماء في رواية السّراويل، وتبيّن بطلانها، وبذلك يكون الإمام القرطبي من القائلين بأنّ صاحب الكلام هي امرأة العزيز، هذا وقد وجدت شيخ الإسلام ابن تيمية قد تمسّك بالقول أنّ القائل هي المرأة، فقال: (قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف/53] من كلام امرأة العزيز، كما يدلّ القرآن على ذلك دلالة بيّنة، لا يرتاب فيها من تدبر القرآن الكريم، حيث قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف/50–53]، فهذا كلّه كلام امرأة العزيز ويوسف –على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام– في السِّجن لم يَحضر بعدُ إلى الملك ولا سمع –أي الملك– كلامه، ولا رآه، ولكن لمّا ظهرت براءته في غيبته كما قالت امرأة العزيز: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي لم أخنه في حال مغيبه عني، وإن كنت في حال شهوته راودته، فحينئذٍ ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف/54])[43].

ويؤكّد الإمام ابن كثير قول الإمام ابن تيمية، ويراه أقوى وأظهر من قول من رأى أنّ الكلام يعود على يوسف –على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام–؛ لأنّ سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف –على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام– عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك[44].

وإذا كان أصحاب الفريق الثاني قد اتّفقوا على كون الكلام لامرأة العزيز إلاّ أنّهم اختلفوا في عود الضمير في كلمة (ليعلم) على من يعود، فيرى الإمام ابن تيمية أنّ الضمير يعود على سيدنا يوسف –على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام– ويكون المعنى: ذلك ليعلم يوسف –على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام– أنّي لم أخنه في حال مغيبه، وإن كنت في حال شهوته راودته[45].

وعلى ذلك يبيّن الشيخ المراغي معنى الآيتين الكريمتين، فذكر أن كلمة (ذلك) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ يقصد بها: ذلك الاعتراف مني بمراودتي له وإقراري بصدقه ليعلم أني لم أخنه بالغيب منذ سجن إلى الآن، فلم أنل من أمانته، أو أطعن في شرفه وعفّته، بل صرّحت لأولئك النّسوة بأنّي راودته عن نفسه فاستعصم، وهاأنذا أُقرُّ بهذا أمام الملك، وهو –أي يوسف –على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام– غائبٌ عنّا[46]. إنّ من المحتمل أنّ عقيدة التوحيد التي كان يحملها سيدنا يوسف –على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام– قد أخذت طريقها إلى قلب امرأة العزيز فآمنت، فاعترفت بقولها: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف/53] شهادة كلمة بنظافته وبراءته وصدقه. لا تبالي المرأة ما وراءها ممّا يلمّ بها هي ويلحق بأردانها، يدفعها الحق من جانب، والحرص على إيصال معلومة لذلك الرجل الكريم الجميل المهيب، يدفعها هذا وذاك لكي يصل إلى مسامع يوسف –على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام– أنّها قد احترمت غيبته، فلم تطعن في براءته[47]، وقولها (لم أخنه) معناه: لم أتّهمه بمحاولة السوء معي[48]. فالخيانة في اللغة نقصان الوفاء[49]. أي لم أنتقص من مقداره وهو غائب.

ويرى الإمام ابن كثير أنّ الضمير يعود على زوجها العزيز، ويكون المعنى: إنّما اعترفْت بهذا ليعلم زوجي أنّي لم أخنه بالغيب في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع، فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة، ولست أبرئ نفسي، فإنّ النفس تتحدث وتتمنى، ولهذا راودته؛ لأنّ النفس لأمارةٌ بالسوء إلا من عصمه الله تعالى[50].

لقد عرضت اختلاف السادة العلماء في بيان المتكلّم لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف/52–53]، أهو يوسف –على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام–، وهو ما ذهب إليه العلماء: الطبري والزمخشري والألوسي، أو هي امرأة العزيز، وهو ما ذهب إليه العلماء: القرطبي وابن تيمية وابن كثير، ومن وافقهم من المعاصرين الذين ذكرتهم، ثمّ عرضت اختلاف الأخيرين في عَوْد الضمير في كلمة (ليعلم).

والذي أميل إليه في شأن الاختلاف الأول أنّ القائل هي امرأة العزيز بدلالة السياق. والسياق بلا شك له أهميته البالغة في تعيين المراد، كما بيّنت ذلك في المبحث الأول.

والسياق لا يكون بدلالة المعنى البعيد، بل يكون بدلالة المعنى القريب، فالمتكلّم قبل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف/52–53] هي امرأة العزيز، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف/51]. وكأنّ امرأة العزيز بهذا الاعتراف تمهّد لقولها: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى، فإنّ لسائل أن يسأل: أيُّهما أولى –في هذا المقام على وجه الخصوص– أن لا يزكّي نفسه، وأن يذكر أنّ من طبيعة النفوس الأمر بالسوء، هل هو الذي توجَّهت همته نحو السوء والفاحشة، ثمّ أقرّ على نفسه واستغفر أم من كان حريصاً على النّأي بنفسه عن الفاحشة فضلاً عن التوجه إليها والهمّ بها، ولا شكّ أنَّ الأولى بذلك هي امرأة العزيز.

وبما أنّ الرّوايات التي أوردها السادة العلماء أصحاب الفريق الأول التي اتّهمت يوسف –على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام– بحل سراويله، روايات باطلة من صنع اليهود، فلا شكّ في نفسي أنّ القائل هي امرأة العزيز.

وأمّا فيما يتعلّق بالاختلاف الثاني –أعني اختلاف السادة العلماء أصحاب الفريق الثاني في عود الضمير في كلمة (ليعلم)، فالذي أميل إليه أنّه يعود على سيدنا يوسف –على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام–بدلالة السياق كذلك، فإنّ الملك يسأل النسوة بمن فيهن امرأة العزيز عن أمرهن مع سيدنا يوسف –على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام–، ولم يخبرنا الله تعالى إن كان الملك قد سألها في ذلك المقام عن زوجها العزيز –والله تعالى أعلم–.

ولا أرى أنّ العلامة الآلوسي قد أصاب حين ربط بين قول النبي –صلّى الله عليه وسلّم–: (أنا سيّد ولد آدم ولا فخر)[51]. وبيّن قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف/53]، فالنبي –صلّى الله عليه وسلّم– يثبت لنفسه أنّه سيّد ولد آدم –على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام– وينفي أنّه يُعظّم نفسه أو يتكبّر على الناس، ولا أظنّ الآية تشير إلى هذا المعنى –والله تعالى أعلم–.

الخاتمة وأهم النتائج:

الحمد لله رب العالمين، الذي أعانني على كتابة هذه الورقات، وأسأله –سبحانه– أن أكون قد وُفقت فيها إلى الصواب، فيما اختلف فيه علماؤنا من مسائل التفسير، لما عرضت له من الآيات الكريمة.

هذا وقد خرجت بهذا البحث بأكثر من نتيجة، أوجزها في النقاط الآتية:

أولاً: إنّ تدبر سياق الآيات الكريمة، له أثرٌ واضح في فهم معنى الآية التي يختلف في فهمها العلماء، ومعرفة السياق تعتمد في الأساس على تدبر الآيات الأقرب في الترتيب إلى الآية التي يُراد معرفة من أُسند إليه الكلام فيها.

ثانياً: إنّ الكشف عن حقيقة الروايات التي يذكرها المفسرون، بمعرفة صحيحها من سقيمها له دورٌ بارزٌ في معرفة القائل، كما كان الشأن في رواية السراويل التي أُلصقت بسيدنا يوسف –على نبيّنا وعليه الصلاة والسّلام– زوراً وبهتاناً.

ثالثاً: تبيّن لي بهذا البحث أنّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران/73] وقوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ [آل عمران/73]، إنّما هو من قول الطائفة المذكورة في الآية التي قبلها مباشرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران/72]. وهم اليهود وليس من قول المؤمنين، كما بيّنتُ ذلك ولله الحمد.

وبناءً على هذا الفهم، فإنّي أرى أنّ الوقف على كلمة (دينكم) من قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران/73] أولى من الوصل. والوقف على كلمة (ربكم) من قوله تعالى: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران/73] أولى من الوصل كذلك.

رابعاً: تبيّن لي كذلك أنّ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف/52–53] من كلام امرأة العزيز وليس من كلام سيدنا يوسف –على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام–، وكان مقصودها أن يعلم سيدنا يوسف –على نبيّنا وعليه الصلاة والسّلام– أنّها لم تطعن

في عفّته أمام الملك وهو غائب، ولم تقصد أنّها لم تخن زوجها كما قال بعض المفسّرين –جزاهم الله جميعاً خير الجزاء–، والله تعالى أعلم.

هذا ما توصّلت إليه من النتائج، فإن وافقت الصّواب فالفضل لله –عزّ وجلّ– وحده، وإن خالفت الصّواب فمن تقصيري، وأسأله –سبحانه– المغفرة والتوفيق إلي الصّواب.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

الهوامش

(1) يُنظر: الطبري جامع البيان في تأويل القرآن (560/1)، أبو جعفر محمد بن جرير (ت310هـ)، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط2، 1418هـ-1997م.

(2) يُنظر: د. محمد بكر إسماعيل، ابن جرير الطبري ومنهجه في التفسير (ص121)، دار المنارة، القاهرة، ط1، 1411هـ-1991م.

(3) ينظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل (237/4)، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت538هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1417هـ-1997م.

(4) يُنظر: أبو جعفر الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل (300/2)، أحمد بن إبراهيم بن الزبير (ت708هـ)، دار الكتب العلميّة، بيروت، بلا تاريخ طبع.

(5) خالد السبت، مختصر في قواعد التفسير (14/1)، دار ابن القيّم، ط1، 1426هـ-2005م.

(6) يُنظر: ابن القيم، بدائع الفوائد (4/9-10)، محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت751هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، بلا تاريخ طبع.

(7) يُنظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن (86/1)، بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي (ت794هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، 1408هـ-1988م.

(8) يُنظر: د. فاضل السّامرائي، التعبير القرآني (ص236)، دار عمّار، ط1، 1418هـ-1998م.

(9) يُنظر: د. محمد الدوري، دقائق الفروق اللغويّة في البيان القرآني (ص6)، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1427هـ-2006م.

(10) يُنظر: تفسير القرآن العظيم (368/1)، للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت774هـ)، دار الخير، ط2، 1412هـ-1991م؛ والتسهيل لعلوم التنزيل (99/1)، للإمام محمد بن أحمد بن جزيّ الكلبيّ الغرناطي الأندلسي (ت792هـ)، دار الفكر، بيروت، بلا تاريخ طبع.

(11) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن (3/311-312)، مصدر سابق؛ والكشّاف (400/1-401)، مصدر سابق؛ ومفاتيح الغيب (259/3)، للإمام محمد بن عمر بن الحسين الرازي، الملقب بفخر الدين (ت606هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1417هـ-1997م؛ وغرائب القرآن ورغائب الفرقان (187/2)، للإمام نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين

القمّي النيسابوري (ت728هـ)، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1416هـ-1996م؛ وتفسير القرآن العظيم (400/1)، مصدر سابق.

(12) يُنظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن (93/3)، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (ت427هـ)، تحقيق أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1422هـ-2002م؛ والجامع لأحكام القرآن (121/4)، لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت671هـ)، دار الحديث، القاهرة، ط2، 1416هـ-1996م؛ والبحر المحيط (212/3)، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيّان الأندلسي الغرناطي (ت745هـ)، دار الفكر، بيروت، 1426هـ-2005م.

(13) يُنظر: الرازي، مفاتيح الغيب (259/3)، مصدر سابق.

(14) يُنظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن (311/3)، مصدر سابق.

(15) يُنظر: الكشّاف (400/1)، مصدر سابق.

(16) الكشف والبيان عن تفسير القرآن (93/3)، مصدر سابق.

(17) ليس له أصل في كتب السّنّة، وللاطلاع على كلام الإمام القرطبي، ينظر: الجامع لأحكام القرآن (121/4-122)، مصدر سابق.

(18) يُنظر: المفردات في غريب القرآن (ص25)، مادة (أمن)، للإمام أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت502هـ)، تحقيق محمد سيّد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، بلا تاريخ طبع.

(19) ينظر: جامع البيان (314/3)، مصدر سابق.

(20) ينظر: الكشاف (401/1)، مصدر سابق؛ ومفاتيح الغيب (259/3-260)، مصدر سابق؛ والبحر المحيط (212/3)، مصدر سابق؛ وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (200/3-201)، للإمام أبي الفضل شهاب الدين محمد الآلوسي (ت1270هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط4، 1405هـ-1985م؛ والتحرير والتنوير (282/2)، للإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور (ت1393هـ)، دار سحنون، تونس، بلا تاريخ طبع؛ وتفسير القرآن الحكيم (278/3)، المشهور بتفسير المنار، للإمام محمد رشيد رضا (ت1935م)، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط2، 1426هـ-2005م

(21) يُنظر: جامع البيان (313/3-314)، مصدر سابق.

(22) يُنظر: تفسير القرآن العظيم (400/1)، مصدر سابق.

(23) ينظر: الكشاف (400/1)، مصدر سابق.

(24) يُنظر: كتاب السبعة في القراءات (ص207)، لأبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي (ت324هـ)؛ والمُيسَّر في القراءات الأربع عشرة (ص59)، للشيخ محمد فهد خاروف ومراجعة الشيخ محمد كريِّم راجح، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط4، 1427هـ-2006م.

(25) يُنظر: كتاب السبعة في القراءات (ص207)، مصدر سابق. وهناك قراءة (إن يؤتى) هكذا بكسر همزة (إن) بمعنى ما النافية، لكنها قراءة شاذة؛ ينظر: القراءات الشاذّة (ص21)، لابن خالويه (ت370هـ)، دار الكندي، بلا تاريخ طبع.

(26) وذلك لأنّ (أو) في قوله تعالى: ﴿**أَوْ يُحَاجُّوكُمْ**﴾ حرف عطف؛ يُنظر: إعراب القرآن للنّحّاس (387/1)، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النّحّاس (ت338هـ)، تحقيق: د. زهير زاهد، عالم الكتب، ط3، 1409هـ-1988م.

(27) يُنظر: مفاتيح الغيب (260/3)، مصدر سابق.

(28) يُنظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (122/9)، مصدر سابق؛ والبحر المحيط (234/6)، مصدر سابق.

(29) يُنظر: الجامع لأحكام القرآن (215/9)، مصدر سابق.

(30) يُنظر: جامع البيان في تأويل القرآن (235/7-236)، مصدر سابق.

(31) يُنظر: الكشّاف (452/2)، مصدر سابق.

(32) يُنظر: روح المعاني (261/12)، مصدر سابق.

(33) يُنظر: جامع البيان (237/7-239)، مصدر سابق.

(34) يُنظر: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث (725/2)، لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت807هـ)، تحقيق: د. حسين الباكري، مركز خدمة السنة والسيرة النبويّة، المدينة المنورة، ط1، 1413هـ-1992م.

(35) يُنظر: دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية (272/2-273)، لشيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحنبلي الدمشقي (ت728هـ)، جمع وتحقيق: د. محمد السيد الجليند، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ط2، 1404هـ.

(36) يُنظر: روح المعاني (2/13)، مصدر سابق.

(37) رواه الإمام الترمذي في سننه، وقال: حديثٌ حسن، ينظر: سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن الكريم، باب: ومن سورة بني إسرائيل (308/5)، حديث رقم (3148)، تحقيق: أحمد شاكر وآخرين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، 1395هـ-1975م؛ وابن ماجه، ينظر: سنن ابن ماجه، باب ذكر الشفاعة (1440/2)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربيّة، بلا تاريخ طبع.

(38) يُنظر: روح المعاني (2/13)، مصدر سابق.

(39) يُنظر: الجامع لأحكام القرآن (215/9)، مصدر سابق؛ ودقائق التفسير (273/2)، مصدر سابق، وتفسير القرآن العظيم (528/2)، مصدر سابق.

(40) يُنظر: تفسير المراغي (281/12)، للأستاذ أحمد مصطفى المراغي (1951م)، دار الفكر، 1426هـ-2006م؛ وتفسير المنار (267/12-268)، مصدر سابق؛ وفي ظلال القرآن (1995/4-2004)، للشهيد سيد قطب (ت1966م)، دار الشروق، ط17، 1412هـ-1992م؛ والتحرير والتنوير (292/12)، و(5/13-6)، مصدر سابق.

(41) يُنظر: الجامع لأحكام القرآن (215/9)، مصدر سابق.

(42) يُنظر: دقائق التفسير (273/2)، مصدر سابق.

(43) يُنظر: تفسير القرآن العظيم (528/2)، مصدر سابق.

(44) يُنظر: دقائق التفسير (273/2)، مصدر سابق.

(45) تفسير المراغي (281/4)، مصدر سابق، وما قاله الشيخ المراغي أعاده الشيخ محمد رشيد رضا؛ يُنظر: تفسير المنار (267/12).

(46) يُنظر: في ظلال القرآن (1995/4)، مصدر سابق.

(47) يُنظر: التحرير والتنوير (292/5)، مصدر سابق.

(48) يُنظر: معجم المقاييس في اللغة (ص336، مادة خون)، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت395هـ)، تحقيق: شهاب الدين أبي عمرو، دار الفكر، بيروت، بلا تاريخ طبع.

(49) يُنظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (528/2)، مصدر سابق.

(50) سبق تخريجه.